المبحث الثالث

التضمين

ينقسم الكلام العربي إلى خبر وانشاء، ولا شك أن كليهما قد يخرج عن مقتضى الظاهر لتادية اسرار بلاغية تمثل المعاني الثانية وراء النظم والتركيب، والمعاني التي يخرج إليها كل من الخبر والانشاء تدخل في باب الاتساع لأن هذه المعاني تكمن وراء المعنى الأول للتركيب، ويساعد على اظهارها السياق الذي ترد فيه، ولا تعد كل هذه المعاني من المجاز لأن بعضا من هذه التراكيب تبقى محافظة على المعاني الاصلية[1]، ويأتي (التضمين) في رسالة الرماني - بمعناه الواسع - ليشير بايجاز إلى المعاني الثانية في القرآن الكريم، ولا بد لنا اولا من الوقوف عند مصطلح (التضمين) ودلالاته في اللغة العربية، وعند السابقين للرماني لنصل إلى أهمية ما أراد الرماني قوله في هذا القسم.

التضمين لغة:

ضمن الشيء الشيء أودعه اياه كما تودع الوعاء المتاع والميت القبر، وكل شيء جعلته في وعاء فقد ضمنته ايّاه، والمضامين ما في بطون الحوامل كأنهن تضمنه، والضمن والضمان والضمنة والضمانة: الداء في الجسد من بلاء وكبر، والضمانة الحب، ورجل ضمن: عاشق[2]. فكل هذه المعاني تشترك في الاحتواء والاحاطة الشاملة لتغطية واخفاء الشيء المضمن داخل المتضمن.

أمّا التضمين اصطلاحا:

فله اربعة معاني مختلفة[3]، وهي:

1. التضمين هو ((تعلق معنى آخر البيت باول البيت الذي يليه))[4] على نحو قول النابغة الذبياني[5]:

وهـــم وردوا الجفـــار علـــى تمـــيم وهـــم أصـــحاب يـــوم عكـــاظ إنـــي

(1) =: الاسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم / 308.
(2) =: ل: 257/13 - 260 مادة (ضمن).
(3) =: معترك الاقران: 302/1.
(4) مفتاح العلوم / 273.
(5) ديوانه / 127 - 128.

شـــهدت لهـــم مـــواطن صـــادقات أتيـــنهم بـــود الصـــدر منـــي

2. التضمين ((هو استعارتك الانصاف والابيات من غيرك وادخالك إياها في أثناء ابيات قصيدتك كقول الشاعر:

إذا دلـــه عـــزم علـــى الحـــزم لـــم يقـــل غـدا غـدها إن لـم تعقهـا العوائـق[1]))

3. للتضمين معنى آخر وهو اعطاء الشيء معنى الشيء، ويكون في الاسماء وفي الافعال وفي الحروف، فأما في الاسماء فهو أن تضمن اسما معنى اسم لافادة معنى الاسمين جميعا كقوله تعالى: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [2] ضمن (حقيق) معنى(حريص) ليفيد أنه محقوق بقول الحق وحريص عليه، واما الافعال فان تضمن فعلا معنى فعل آخر ويكون فيه معنى الفعلين جميعا، وذلك بأن يكون الفعل يتعدى بحرف فيأتي متعديا بحرف آخر ليس من عادته التعدي به فيحتاج إلى تأويله أو تأويل الفعل ليصح تعديه به))[3]. واختلف في ايهما أولى، فالكوفيون يقولون بنيابة حروف الجر بعضها عن بعض، والبصريون يقولون بالتضمين في الافعال[4]. ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [5] يقول الكوفيون أن (في) بمعنى (على) ويرى البصريون أن (في) باق على حاله، والمعنى أن المصلوب في الجذع، والجذع وعاء له، والمعنى: لأجعلنكم في جذوع النخل. ولحرف الجر معنى واحد أصلي يؤديه، فان أدى الحرف معنى آخر فتاديته أمّا مجازية أو تضمينية[6]. ولانريد هنا ترجيح رأي على آخر، إلاّ اننا نقول إن الحرف لا ينوب مكان حرف، ولكنه يؤدي معنى لا يؤديه الحرف غير المذكور لاسيما في القرآن الكريم، والشواهد التي تؤيد ذلك كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ [7] ففي الأولى جاء الحرف (إلى) ليفيد الغاية، وفي الثانية (على) ليفيد

(1) كتاب الصناعتين / 36.
(2) سورة الاعراف: من 105.
(3) البرهان في علوم القرآن: 338/3.
(4) =: حاشية الصبان على شرح الاشموني على ألفية ابن مالك: 210/2.
(5) سورة طه: من 71.
(6) =: النحو الوافي، عباس حسن: 538/2.
(7) سورة الصافات: 91 - 93.

الاستعلاء، ولايمكن أن ينوب أحدهما عن الاخر في هذا الموضع ويؤدي المعنى كاملا.

ويبقى السؤال أيعد التضمين حقيقة أم مجازا؟ فقد اختلف في هذه المسألة أيضاً فمن العلماء من راى أن المادة المتضمنة قد استخدمت على الوجه الحقيقي، ومنهم من يرى انها استخدمت على الوجه المجازي مع القرينة الدالة،ويرى آخرون الجمع بين الحقيقة والمجاز في أن واحد،[1] وقد أوصل هذا الاختلاف إلى ثمانية آراء،[2] ولم يكن هذا الخلاف حديثا إذ نجده عند ابن جني [3]، والزمخشري[4]، والتفتازاني[5] (ت791هـ) وأبي البقاء[6] (ت1094هـ).

والبادي أن الراي القائل بالجمع بين الحقيقة والمجاز اقرب الآراء إلى حقيقة التضمين، إذ إن اللفظ حين يجمع بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي المتضمن له فهو جمع بين الحقيقة والمجاز ولايمكن عده مجازيا فقط، لأن المعنى الحقيقي للمادة المتضمنة لايترك، كما لايمكن عده حقيقيا فقط وهناك معنى آخر غائب لفظه ومعبر عنه بلفظ آخر.

أمّا فائدة هذا النوع من التضمين فهي: الإيجاز، وذلك ((أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين))[7]، وقد تحدث العلماء عن قرينة التضمين فقالوا: انها تعدية الفعل بالحرف أو أن يتعدى بحرف ليس له بل للفعل المتضمن.[8] واشترطوا في التضمين وجود المناسبة أو (الصلة) بين الفعلين[9]. واختلفوا أيضاً في التضمين من حيث السماع والقياس[10]. وقد اتخذ اتخذ مجمع اللغة العربية في القاهرة قرارا بقياسية التضمين بشروط: اولها: تحقق المناسبة

(1) =: من وحي القرآن، د ابراهيم السامرائي / 116.
(2) =: اقوال العلماء في التضمين، للشيخ حسين والي، مجلة مجمع اللغة العربية - القاهرة - دور الانعقاد الاول لسنة 1934 / ص 221 - 224.
(3) =: الخصائص: 2 / 309.
(4) =: الاشباه والنظائر في النحو: 1 / 101.
(5) =: م ن: 1 / 101.
(6) =: الكليات / 24.
(7) الكليات / 26.
(8) =: البرهان في علوم القرآن: 3 / 338.
(9) =: الكليات / 24.
(10) =: التضمين ونيابة بعض الحروف عن بعض، للشيخ ابراهيم حمروش، مجلة مجمع اللغة العربية - القاهرة - دور الانعقاد الاول لسنة 1934 / ص 264.

بين الفعلين. وثانيها: وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ويؤمن بها اللبس. وثالثها: ملائمة التضمين للذوق العربي، واشترط أن يكون لغرض بلاغي[1].

وعلى الرغم من أن القول بالقياس في قضية التضمين جاء بحجة متطلبات العصر والحاجة إليه فلا توفر هذه الشروط سياجا منيعا ضد الخطورة الكبيرة لهذا القرار، لاسيما وانهم اباحوه في الاستخدام الفني، أي فيما يخص الفن والادب، وهنا تكمن المصيبة !لاننا وبلا تضمين نجد اليوم جزءا من الادب غامضا معقدا لايستقر على معنى ثابت مفيد، فالقول بقياسية التضمين سيزيد بعض شعرائنا بعدا عن الواقع اللغوي الحي المليء بالجمال، فهل أن الشاعر لايبدع إلاّ بالتضمين؟ وأن عمل الشاعر بالتضمين الصحيح وحسب الشروط، فهل يفهمه الناس؟ وغاية التضمين تسهيل اللغة بالايجاز الذي يؤديه ؛ أن الكتاب ليعرض كل هذا خشية أن يؤدي القياس إلى الفوضى والفساد في اللغة مما يقدمه البعض.

لقد تناول الدارسون هذا النوع من التضمين وأطالوا الشرح فيه[2]. ولكن الذي يدعو إلى العجب أن الدكتور ابراهيم السامرائي يعد التضمين دليلا على اضطراب علماء العربية القائلين به، إذ يقول: ((إن مبحث التضمين الذي ندرسه يظهر اضطراب علماء العربية القائلين به، فهناك نصوص تنم عما وضعوه من احكام وقيود لم يجدوا إلى حلها غير القول بالتضمين))[3]ويقول أيضاً: ((إن النحويين وعلماء اللغة في حيرة واضطراب فهم يرون حرفا قد استعمل في مكان آخر، ولابد لهم أن يتخلصوا من هذه الحيرة وهذا الاضطراب بوسيلة من وسائلهم))[4]، والاعجب من ذلك قوله ((انهم احتالوا على كل ما وجدوه خارجا عما قرروه من قواعد فقالوا بالتضمين مثلا))[5]. والحق إن هذا القول لايعبر إلاّ عن وجهة نظر صاحبه وعن موقفه إزاء قضية التضمين، وكان الاجدى أن لايؤدي الميل إلى القائلين بالنيابة إلى مرحلة التهجم على القائلين بالتضمين، كما وصل من قبل في قضية المدارس النحوية.

(1) =: م ن / 236.
(2) =: من وحي القرآن / 106، ونحو القرآن / 58، والنحو العربي نقد وبناء، د. ابراهيم السامرائي/ 169، 169، والنحو الوافي: 2 / 169.
(3) من وحي القرآن / 106.
(4) م ن / 110 والنحو العربي نقد وبناء / 165.
(5) ن / 113.

4. **التضمين هو ((حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم أو صفة هي عبارة عنه))[1] وهنا يختلف معنى التضمين عما سبق ذكره إذ يأخذ مجالا واسعا يصب في فكرة المعاني الثانية، وسيفصل القول فيه فيما بعد.**

وهكذا نجد أن معاني التضمين في الاصطلاح لاتبتعد أو تختلف عن المعنى اللغوي فالقاسم المشترك بينهما هو الاحتواء الكامل للمضمن من قبل المتضمن.

التضمين عند السابقين للرماني:

لقد عرف التضمين بمعانيه الاربعة التي ذكرناها عند السابقين للرماني، ويحاول الكتاب إيجاز ذلك والاكتفاء باشارات موجزة إلى النوع الثالث والرابع السابق ذكرهما لاسيما أن النوع الرابع هو مدار الكتاب أصلا، والنوع الثالث قريب منه.

أن تحديد أول القائلين بالتضمين مسالة لايمكن البت فيها، لانه قد عرف عند العرب قبل الاسلام وإن لم تكن التسمية واضحة عندهم، فالشعراء في عصر ما قبل الاسلام اعتمدوا في كثير من أشعارهم وفي شتى الاغراض على تضمين قصائدهم الكثير من المعاني الثانية التي لاتفهم من ظاهر النص وانما تحتاج إلى تامل والى مراعاة السياق الحالي لصاحب النص، واستمر ذلك بعد مجيء الاسلام ونزول القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب واساليبها، وكان التضمين من بين تلك الاساليب التي تضمنها التعبير القرآني ببلاغته المعجزة، فتضمنت آياته من المعاني الثانية مالايمكن حصرها.

ومن ثمة نقف عند عدد من المؤلفات السابقة للرماني لنوجز ما قيل في التضمين المقابل للنيابة، والتضمين بمعنى المعاني الثانية، فنجد اولا إشارة لسيبويه يتحدث فيها عن السعة في الكلام عند العرب إذ يقول: ((وسمعنا من العرب من يقول ممن يوثق به: اجتمعت اهل اليمامة، لأنه يقول في كلامه: اجتمعت اليمامة، يعني اهل اليمامة، فأنث الفعل في اللفظ إذ جعله في اللفظ لليمامة، فترك اللفظ يكون على ما يكون عليه في سعة الكلام))[2]، ولاشك أن هذا القول قريب من معنى التضمين الذي يشكل مجاز الحذف جزءا منه أو أحد أسبابه.

(1) ر / 102.
(2) الكتاب: 1 / 53.

ويتحدث سيبويه في مواضع أخرى عن اتساع الكلام للاختصار والذي يتضمن عنده مجاز الحذف والمجاز العقلي ويظهر ذلك جليا من خلال الشواهد التي يعرضها[1].

ونجد عند الفرّاء خلال تفسيره للآيات إشارات إلى معنى التضمين المقابل للنيابة، من ذلك قوله: ((وقد وجدنا من العرب من يجعل (في) موضع (الباء) فيقول:(أدخلك الله بالحنة، يريد في الجنة))[2]، ونجده في كثير من المواضع يعتمد على إظهار ما استطاع اظهاره من المعاني الثانية لبعض الآيات، إذ يقول في قوله تعالى: ﴿ **وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴾ [3]: ((وهو ما ينتفع به من أوبارها... والمنافع: حملهم على ظهورها وأولادها وألبانها، والدفء ما يلبسون منها ويبتنون من أوبارها))[4]، ويقترب مصطلح (الاجازة) عند الفراء من معنى التضمين عند الرماني، وقد ورد المصطلح في مواضع عديدة منها في قوله: ((ويقول القائل: فكيف قال﴿ **فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ** ﴾ [5] فهل في العسر تيسير؟ فيقال: في هذا إجازته بمنزلة قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [6]))[7].

ونجد عند أبي عبيدة ما يقترب من معنى التضمين عند الرماني، إذ يقول في قوله تعالى: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ** ﴾ [8]: ((جاءت على لفظ الاستفهام، والملائكة لم تستفهم ربها وقد قال تبارك وتعالى: ﴿ **إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [9] ولكن معناها معنى الايجاب: أي انك ستفعل، قال جرير[10] فاوجب ولم يستفهم لعبدالملك بن مروان:

ألستم خير من ركب المطايا دله عزم وأنـــدى العـــالمين بطـــون راح[11]))

(1) =: م ن: 1 / 212 - 213.
(2) معاني القران: 2 /70.
(3) سورة النحل: 5.
(4) معاني القرآن: 2 / 96.
(5) سورة الليل: 10.
(6) سورة التوبة: من 3.
(7) معاني القرآن: 3 / 270 - 271.
(8) سورة البقرة: من 30.
(9) س ن: من 30.
(10) ديوانه / 117.
(11) مجاز القرآن: 1 / 35 - 36.

ويروي الجاحظ شيئا عن معنى التضمين عند العرب إذ يقول: ((قال معاوية بن أبي سفيان ﷺ لصحار العبدي: ما الإيجاز: قال أن تجيب فلا تبطيء وتقول فلا تخطيء، قال معاوية: أو كذلك تقول: قال صحار: أقلني ياأمير المؤمنين، لاتخطيء ولا تبطيء فلو أن سائلا سألك عن الإيجاز فقلت لاتخطيء ولاتبطيء وبحضرتك خالد بن صفوان لما عرف بالبديهة وعند أول وهلة أن قولك (لاتخطيء) متضمن بالقول، وقولك (لاتبطيء) متضمن بالجواب وهذا حديث كما ترى آثروه ورضوه))[1]، فهذا النص فيه إشارة إلى التضمين والى فائدة التضمين وهي الإيجاز، كما فيه إشارة إلى أن العرب قد آثرته وارتضته بحكم ميلها إلى الإيجاز. ويروي الجاحظ أقوال بعض الصحابة والتابعين في تفسير بعض الآيات تفسيرا يعتمد على إيضاح المعاني الثواني التي تتضمنها الآيات.[2]

ونجد عند إبن وهب ما يقترب بعض الشيء من التضمين، إذ يعقد بابا بعنوان (اللحن) وهو ((التعريض بالشيء من غير تصريح أو الكناية عنه بغيره... والعرب تفعل ذلك لوجوه تستعمله في اوقات ومواطن))[3].

وعند ابن قتيبة نجد معنى التضمين المقابل للنيابة، إذ يعقد بابا بعنوان ((باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض))[4] ويستشف منه أنه من القائلين بالنيابة بين الحروف كدخول (الباء) مكان (عن) في قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[5]، كما يعقد موازنة فيما جاء من ذلك في القرآن وما جاء منه في كلام العرب نظما ونثرا، ونجد عنده أيضاً النوع الآخر للتضمين وهو المعاني الثانية إذ يقول في قوله ﷺ: ((إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم)[6]: ((وإنما نهى رسول الله ﷺ من الاستكثار من الدنيا ومن غضارتها وحسنها وحسنها إذا كان في ذلك مايهلك، فضرب استكثار البهيمة من العشب في الربيع حتى يقتلها حبطا مثلا لذلك))[7] وله إشارة أخرى على وجود المعاني الثانية في القرآن الكريم الذي ((جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه))[8]، كما نجد معنى التضمين عنده في حديثه

(1) الحيوان: 1 / 90 - 91.
(2) =: الحيوان: 7 / 50 و1 / 343 - 345.
(3) البرهان في وجوه البيان / 133.
(4) تاويل مشكل القرآن / 567، ويقصد بحروف الصفات: حروف المعاني.
(5) سورة الفرقان: من 59.
(6) الحبط: ان تاكل الناقة حتى تنتفخ، =: ل: 7 / 270، يلم: يقارب ان يقتل من الالم =: ل:12/ 22.
(7) تاويل مشكل القرآن / 580.
(8) م ن / 3.

عن قوله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [1] إذ يفصل ما تضمنته هذه الآية من معاني ثانية فيقول: ((وانما استثنى الموتة الاولى وهي في الدنيا لأن السعداء حين يموتون يصيرون بما شاء الله من لطفه وقدرته إلى أسباب من أسباب الجنة ويتفاضلون أيضاً في تلك الاسباب على قدر منازلهم عند الله، فمنهم من يلقّى بالرَّوح والريحان، ومنهم من يفتح له باب إلى الجنة، ومنهم (الشهداء) أرواحهم في حواصل طير خضر تعلق في الجنة))[2]، وقد اعتمد ابن قتيبة قتيبة في رده على الطاعنين في القرآن على فكرة المعاني الثانية((والذي أوقعهم في هذا التورط هو جمودهم عند المعاني الاولى لا يتجاوزونها))[3] فكانت المعاني الثانية هي السلاح الحقيقي في رده عليهم.[4]

أمّا المبرد فيبدو أنه من القائلين بالنيابة إذ يقول: ((وحروف الخفض يبدل بعضها من بعض إذا وقع الحرفان في معنى في بعض المواضع، قال تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [5] أي (على) ويكون جذوع إذا أحاطت دخلت (في) لانها لوعاء، يقال (فلان في نخل) أي قد أحاط به))[6].

وبعد أن فرغ ابن معتز (ت296هـ) من ذكر أبواب بديع، شرع في ذكر أبواب أخرى قال عنها إنها بعض محاسن كلام وشعر، ومنها (حسن تضمين) ولم يعرّفه أو يعلق عليه بل اكتفى بذكر أبيات من شعر منها:

عوّدتُ ما بتُّ ضيفاً أقراصَه بخلا بياسين

فبتُّ والارض فراشي وقد غنت قفا نبك مصاريني[7]

وهو كما يبدو تضمين لمعاني ثانية إذ عرَّض شاعر برجل وكنى عن بخله بهذه الابيات.

(1) سورة دخان: من 56.
(2) تاويل مشكل قرآن / 73.
(3) معاني ثانية في الاسلوب قرآني، د فتحي احمد عامر / 56.
(4) =: تاويل مشكل قرآن / 109 وما بعدها.
(5) سورة طه: من 71.
(6) كامل: 3 / 97.
(7) =: كتاب بديع / 64.

وعند قدامة نجد إشارات إلى بعض الفنون البلاغية التي تقترب من معنى التضمين عند الرماني وهو المعاني الثانية، وأول تلك الاشارات (الايماء) وهو في قوله: ((وقد أومأ أبو السمط مروان ابن ابي حفصة في مدحه شرحبيل بن معن بن زائدة إيماءً موجزا ظريفاً أتى على كثير من المدح باختصار وإشارة بديعة حيث قال:

رأيت ابن معن أنطق الناس جوده فكلف قول الشعر من كان مفحما[1]

ويذكر قدامة ضمن أنواع إئتلاف اللفظ مع المعنى ثلاثة أنواع تقترب من معنى التضمين وهي (الإشارة والارداف والتمثيل) فالاشارة هي ((أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معانٍ كثيرة بايماءٍ إليها أو سمة تدل عليها... وذلك مثل قول إمريء القيس[2]:

وإن تهلك شنوءة أو تبدل فسيري إن في غسان خالا

بعزهم عززت وإن يذلوا فذلهم أتاك مآلا

فبنية هذا الشعر على أن الفاظه مع قصرها قد أشير بها إلى معان طوال))[3] أمّا الارداف فهو ((أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابعه فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع))[4] ومنه قول ابن ابي ربيعة[5]:

بعيدة مهوى القرط أمّا نوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

أمّا التمثيل فهو ((أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاما يدل على معنى آخر، وذلك المعنى الاخر والكلام منبئان عما أراد أن يشير إليه، مثال ذلك قول الشاعر:

فان ضبحوا منا زأرنا فلم يكن شبيها بزأر الاسد ضبح الثعالب

فقد أشار إلى قوتهم وضعف أعدائهم إشارة مستغربة، لها من الموقع بالتمثيل ما لم يكن و ذكر الشيء مشار إليه بلفظه))[6].

(1) نقد الشعر / 86.
(2) ديوانه / 311.
(3) نقد الشعر / 174.
(4) م ن / 178.
(5) ديوانه / 106، و =: نقد الشعر / 178.
(6) نقد الشعر / 181 - 184.

وهكذا نجد أن فكرة المعاني الثانية كانت معروفة عند السابقين للرماني، لكن أحدا منهم لم يطلق عليها التسمية بمصطلح (التضمين) إلاّ ما وجدناه عند ابن المعتز من قول بـ(حسن التضمين) في الشعر، وهكذا يكون الرماني أول من أطلق هذه التسمية على المعاني الثانية لاسيما إذا اخذنا بنظر الاعتبار أنه يتحدث في نكته عن القرآن الكريم وما تضمنته الآيات من تلك المعاني وكأنه أراد أن يجمع كل ما أشار إليه السابقون من (تعريض وتلويح وإيماء وإشارة وإرداف وتمثيل وحسن تضمين وكناية) تحت باب واحد يخص ما جاء منه في القرآن الكريم بتسمية واحدة أطلق عليها (التضمين).

التضمين عند الرماني:

((تضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكره باسم أو صفة هي عبارة عنه))[1]، واول ما نلاحظه هنا أن الرماني يستخدم لمرة الثانية لفظة (الكلام) بعد أن استخدمها في تعريف الإيجاز، وقد أوضحنا في مبحث الإيجاز دلالة هذه اللفظة عند النحاة[2]، ونضيف هنا قول ابن مالك في ألفيته ((وكلمة بها كلام قد يؤم)) أي قد يقصد))[3]، فما كان يقصده نحاة العرب من الكلمة قد يقصدبها عندهم الكلام[4]. فالكلام ((مايتكلم به قليلا كان أو كثيرا واشتهر في عرف أهل اللغة في المركب من حرفين فصاعدا...))[5]. وتظهر هنا دقة ابي الحسن في استخدام هذه اللفظة تكون شاملة لاقسام التضمين التي سيتحدث عنها، إذ سيختص قسم منه باللفظة الواحدة، ويختص القسم الآخر بالتركيب. ونجد أن عبارة (حصول معنى فيه) تدل على أن المعنى المتضمن هو معنى ثانٍ يتحصل بعد معرفة المعنى الأول ودون تركه فحاصل الشيء ومحصوله: بقيته، وتحصيل الكلام: رده إلى محصوله[6]، فالمعاني الثانية قد تكون هي محصول الكلام مع الاخذ بالمعنى الأول، ثم إن ورود لفظة (معنى) بصيغة النكرة تدل على أن هذا المعنى حاصل المتضمن قد يكون

(1) ر / 102.
(2) =: ص من هذه الرسالة.
(3) حاشية الصبان: 1 / 27.
(4) =: معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب / 171.
(5) كشاف اصطلاحات الفنون: 2 / 1348.
(6) =: تاج اللغة وصحاح العربية: 4 / 1669 مادة (حصل).

أكثر من معنى واحد، ويؤكد الرماني أن هذه المعاني الحاصلة في الكلام ليس لها اللفاظ تذكرها لا بالاسم ولا بالصفة.

وهكذا فان دلالة التضمين عند الرماني تأخذ مجالا واسعا ورحبا يشمل المعاني الثانية للالفاظ والتراكيب، بل ويشمل كل الالوان البلاغية القريبة من هذا المعنى والتي سبق ذكرها. فالمعاني الثانية كانت شذرات تنتثر هنا وهناك في كتب السابقين وتتوزع على عنوانات كثيرة، في حين أنه جمعها تحت عنوان واحد، فحدد مفهوم الفكرة بشكل موجز جدا وقد كان سبب هذا الإيجاز هو ما ذكره الرماني بقوله: ((وقد بيّنا ذلك بعد انقضاء كل آية في كتاب (الجامع لعلم القرآن)[1])) فربما ضم هذا الكتاب المفقود كل ما أراد الرماني قوله في هذه المسألة، ولعل السبب في جمع تلك الشذرات والعنوانات تحت باب (التضمين) -يضم فكرة المعاني الثانية - هو أن الرماني هنا بصدد الحديث عن قسم من أقسام بلاغة القرآن المعجزة، والسبب الآخر لهذا التنوع ((عدم استقرار المصطلحات البلاغية في زمن الرماني))[2] ومهما تعددت الاسباب البلاغية في القرآن الكريم توحي بالمعاني الثانية فانها تصب في مجال واحد هو الدعوة إلى العقيدة الصحيحة.

وإيراد الرماني فكرة المعاني الثانية يدل دلالة واضحة على أنه أراد القول بأن التضمين بهذا المعنى يمثل جزءاً من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وكأنه أراد أن يتابع ابن قتيبة في الرد على الطاعنين في القرآن بهذه الإشارة الموجزة.

ولا شك أن المفسرين قد اعتمدوا على فكرة المعاني الثانية لأن (التفسير) ((توضيح معنى الآية وشأنها، وقصتها، والسبب الذي نزلت فيه، بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة))[3] أمّا (التاويل) فهو ((صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا بالكتاب السنة))[4]، أمّا (المعنى) فهو أقرب شيء إلى الدلالة اللغوية التي تفهم من اللفظ[5]. وهكذا كان الرماني واحدا من الذين اعتمدوا على هذه الفكرة في التفسير كما أشار بنفسه إلى ذلك، وكان أول من جمع أشتات الفكرة تحت باب التضمين، بل كان أول من

(1) ر / 104.
(2) رسالة الرماني: تحليل ونقد / 146.
(3) التعريفات / 40.
(4) م ن / 34.
(5) =: المعاني الثانية في الاسلوب القرآني / 41.

أدخل مصطلح التضمين بهذا المعنى إلى البلاغة العربية، والمعنى الذي جاء به هذا المصطلح يعد معنى آخر لا يدخل ضمن التضمين في الانواع الثلاثة التي أشرنا إليها.

أقسام التضمين عنده

يسير الرماني وفق المنهج الذي اختطه نفسه في نكته فيبدأ بعد تعريف التضمين ببيان أقسامه إذ يقول: ((والتضمين على وجهين: أحدهما ما كان يدل عليه الكلام دلالة الاخبار، والآخر مايدل عليه دلالة القياس))[1].

القسم الأول:

مايدل عليه الكلام دلالة الاخبار ((كذكرك الشيء بأنه محدَث، فهذا يدل على المُحدِث دلالة الإخبار، والتضمين في الصفتين جميعا))[2]. والذي يبدو أن هذا القسم يختص بالألفاظ المفردة وله علاقة وثيقة الصلة بالتصريف، ولايكتفي الرماني بذلك، بل جعل هذا القسم نوعين:

أحدهما: ((تضمين توجبه البنية))[3] أي الصيغة الصرفية للفظة، ((فالصفة بمعلوم يوجب أنه لابد من عالم وكذلك مُكرَم))[4]، وعلى الرغم من أن الرماني يرى أن القسم الأول - (مايدل عليه الكلام دلالة الاخبار) - يختص بكلام الناس، والقسم الآخر - (مايدل عليه دلالة القياس) - يختص بكلام الله ﷻ، إلاّ أن القسم الأول نجده يدخل في كلام الله ﷻ، لاسيما في المجاز، فالسيوطي يذكر من صيغ المجاز ((إطلاق فاعل على مفعول نحو ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾[5] أي مدفوق و ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [6] أي لامعصوم، وعكسه نحو ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ [7] أي آتيا و ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [8]، أي ساترا))[9] ولا تحتاج هذه هذه الشواهد إلى توضيح فصيغة الفاعل (دافق) تدل دلالة الاخبار على (مدفوق)، وصيغة

(1) ر / 102.
(2) ر / 102.
(3) ر / 103.
(4) ر/ 103.
(5) سورة الطارق: من 6.
(6) سورة هود: من 43.
(7) سورة مريم: من 61.
(8) سورة الاسراء: من 45.
(9) معترك الاقران: 1 / 192 - 193.

(لاعاصم) تدل دلالة الاخبار على (لا معصوم)، وهكذا العكس وهو ما أكده الرماني بقوله: ((والتضمين في الصفتين جميعا))[1]. ولانجد سببا لجعل هذا القسم مما يختص بكلام الناس إلاّ إذا كان القصد تنزيه كلام الله ﷻ عن مشابهة كلام الناس في صفة واحدة.

ثانيهما: ((تضمين يوجبه معنى العبارة))[2] ويتفرع إلى ضربين:

أ - ((من حيث لا يصح معنى العبارة إلاّ به، كالصفة بقاتل يدل على مقتول من حيث لا يصح معنى قاتل والحال أنه لا مقتول))[3] فلا يصح معنى اللفظة إلاّ بدلالتها دلالة إخبار على المعنى الذي تضمنته، فلا يصح اطلاق صفة (قاتل) على شخص دون أن يكون هناك (مقتول)، لذا نجدهم فرقوا بين قولهم (هذا ضارب أخيك) و (هذا ضارب أخاك)، فالاول لمن كان منه الضرب بالفعل، والثاني لايدل على ضرب حدث وحصل[4].

ب-((من حيث جرت العادة أن يعقد به، كقولهم (الكرُّ بستين) المعنى فيه بستين دينارا فهذا مما حذف وضمن الكلام معناه لجريان العادة به))[5] ولا شك أن هذا يدخل في إيجاز الحذف. وهكذا يتبين ارتباط هذه الأقسام بفكرة المعاني الثانية التي أجملها الرماني بهذه العبارات الموجزة.

(1) ر / 102.
(2) ر / 102.
(3) ر / 103.
(4) =: شرح ابن عقيل: 2 / 106.
(5) ر / 103.

القسم الثاني:

وهو ((التضمين الذي يدل عليه دلالة القياس فهو إيجاز في كلام الله ﷻ خا□ة))[1]والرماني بتخ□يـ□ه هذا القسم لكلام الله ﷻ دون كلام الناس يق□د به: ألاّ تضمين ي□ل إلى ما ورد في القرآن من حيث البلاغة. والتضمين هنا أيضاً هو المعاني الثانية التي لاتدل عليها التراكيب دلالة مباشرة أو دلالة إخبار، وبهذا يظهر جانب آخر من منهج الموازنة الذي اعتمده الرماني بين القرآن وكلام العرب ليؤكد من خلاله علو شأن القرآن وإعجازه البلاغي فقد بدأ هذا المنهج في إيجاز الق□ر بين الآية وقولهم (القتل أنفى للقتل).

ويؤكد الرماني إحتواء القرآن الكريم للتضمين ولا يذكر له شواهد لأن ((كل آية لا تخلو من تضمين لم يذكر باسم أو □فة))[2]، وقد ذكر سببا آخر وهو قوله ((وقد بينا ذلك بعد إنقضاء كل آية في كتاب الجامع لعلم القرآن))[3]. وهكذا سيكون مبحث التلاؤم لأن القرآن كله متلائم في الطبقة العليا، ويكتفي الرماني هنا بشاهد واحد ليكون دليلا على فكرة المعاني الثانية فيقول: ((من ذلك (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) قد تضمن التعليم لاستفتاح الامور على التبرك به والتعظيم لله بذكره، وأنه أدب من آداب الدين وشعار للمسلمين وانه إقرار بالعبودية وإعتراف بالنعمة التي هي من أجل نعمه، وانه ملجأ الخائف: ومعتمد المستنجع))[4].

بلاغة التضمين:

التضمين بالمعنى الذي اورده الرماني لا تظهر بلاغته إلاّ من خلال استحضار السياق الحالي والنظر في نظم الألفاظ والتراكيب، مع مراعاة أن القرآن يجمع المعاني الاولى والثانية، إذ إن المعاني الاولى ((تكون مثارا لدلالات ثانية مبعثها تآلف الكلمات في اتساق حسن وتأليف بديع فتجيء الحقيقة محددة واضحة □حيحة في ثوب أدبي جميل يوحي بالعظمة والتأمل ويضمن لهذه الحقيقة خلودها على مر الزمن))[5]. فالتضمين بو□فه

(1) ر / 103.
(2) ر / 103.
(3) ر / 104.
(4) ر / 103 - 104.
(5) المعاني الثانية في الاسلوب القرآني / 65.

بو□فه وجها من وجوه الإعجاز البلاغي يرتكز على الجمع بين المعاني الاولى والثانية، وإذا قـ□دت المعاني الثانية فقط دخل التضمين في حيز المجاز و□وره، فالمعاني الاولى هي مدلولات التراكيب والالفاظ، والمعاني الثانية هي الاغراض التي يساق إليها الكلام البليغ والتي لاتذكر بلفظ وانما تتعلق بالنظم وايحاءاته، وترتبط بالسياق الحالي إرتباطا وثيقا، وهي في القرآن الكريم قد بلغت أسمى مراتب البلاغة، فلا تضارب بين المعنيين بل هما متـ□لان وثيق الـ□لة، فالمعنى الأول طريق للمعنى الثاني ووسيلة إليه ((وإذا كانت المعاني القريبة في كتاب الله بليغة، فالمعاني البعيدة أبلغ لكونها أكثر مطابقة لمقتضيات الاحوال))[1].

ويعد إحتواء التضمين لكثير من الالوان البلاغية التي تعتمد على فكرة المعاني الثانية وجها أساسيا من وجوه الإعجاز البلاغي لذلك يمكن القول أن الرماني كان بارعا في عده التضمين قسما من أقسام البلاغة المعجزة في نكته، وسنحاول عرض جزء من المعاني الثانية في بعض آيات الكتاب العزيز، متلمسين من خلالها جوانب الإعجاز البلاغي وعلاقة التضمين بالفنون البلاغية الأخرى:

- قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾[2]، مما لا شك فيه أن مفهوم الكناية يعتمد على المعنى الثاني الذي يفهم إيحاء من المعنى الأول الذي ينبيء به الألفاظ، وعلى الرغم من الاختلاف في عد الكناية حقيقة أو مجازا[3]، إلاّ أن ذلك لايبعدها عن حقيقة اعتمادها على المعنى الثاني وقربها من التضمين، ففي الآية نجد أن (عض الظالم على يديه) يوحي بما ترتبط به هذه الحركة، فهي عنوان ورمز للاحساس بالندم والتحسر على ما فات، وتعبر عن مدى الحزن والخسارة والالم في نفس أبي بن خلف الذي كان يحضر النبي ﷺ فيزجره عقبة ابن ابي معيط، ففيه نزلت الآية،[4] فلفظ الظالم وأن اختص بهذا المشرك إلاّ أن دلالته شاملة لكل ظالم لنفسه أو ظالم لغيره من الناس ولكل مشرك. ولا شك أن الفعل المضارع (يعضُّ) يضيف شيئا على المعنى الثاني إذ يدل على استمرار الفعل وتجدده، فضلا عن دلالته على استحضار الـ□ورة وكأنها ماثلة أمامهم

(1) م ن / 326.
(2) سورة الفرقان: 27.
(3) =: معجم المـ□طلحات البلاغية: 3 / 160.
(4) =: لباب النقول في اسباب النزول، للسيوطي / 163.

بجلاء ووضوح[1]، ولا يكتفي هذا (الظالم) بيدٍ واحدة يعض عليها وإنما (يديه) معاً أو بالتناوب[2]، وهكذا ترتسم هذه الصورة المعبرة عن مشهد من مشاهد القيامة لتوحي للقاريء أو السامع بالمعاني الثانية وراء هذا التصوير، فقد تضمنت الآية وعيدا للكافرين بالعذاب وتجسيدا للندم والخسران الذي سيكونون فيه، كما تضمنت الآية أن التمني في ذلك اليوم لا ينفع، إذ نحس في قوله: ﴿يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسولِ سَبيلاً﴾ ((اللهفة المكروبة في هذا التمني وكيف تتعلق نفس الظالم بما فات وكيف هيأ لهذه الصرخة الملتهبة بهذا الصوت المنبه بقوله (يا) وهي دعوة البعيد الذي لا يتحقق فيصبح حلما يتمناه))[3]، ومن جانب آخر فالآية أسلوب دعوة (للظالمين) إلى طريق الهدى قبل أن يأتي ذلك اليوم، لاسيما وأن ما يلحظ على هذا المشهد التطويل في عرضه حتى يخيل للسامع أنه لن ينتهي، وذلك زيادة في عذاب الظالم ندما وتحسرا من جهة، ولزيادة تأثير المشهد من جهة أخرى[4].

- قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[5]، إنها ليست مجرد صورة تعبر عن حال المشركين وهم يتخذون أولياء من دون الله، وكأنهم العنكبوت حين تتخذ بيتا واهنا ضعيفا، وانما هي معان ثانية وراء هذا النظم العجيب لاجزاء الصورة التشبيهية منها ((تقرير ضعف الكفر وقوة الايمان، وحقارة الكافرين وحقارة معبودهم، وعظمة المؤمنين وعظمة رب العالمين، وتجهيل من أهمل عقله))[6]، ومنها الايحاء بحقيقة القوى في هذا الوجود فلا قوة تقابل قوة الخالق ﷻ، فالايمان هو الحقيقة التي يجب أن تستقر في النفوس وتعمر بها القلوب، وقوة الله هي القوة وما عداها واهن هزيل[7]، فالمشرك واهن ويحتمي بآلهة واهنة لا تضر ولا تنفع، والعنكبوت واهنة تحتمي بخيوطها الضعيفة التي لا تصد عنها أي شيء. ولتتأمل مرة أخرى في قوله تعالى: (اتخذت بيتا)، ألاّ تجد إيحاء بالدعوة إلى التأمل والتدبر في القدرة العظيمة لخالق هذه العنكبوت وتركيبتها التي تنتج هذه الخيوط

(1) =: من اسرار التعبير القرآني / 51، معاني الابنية في العربية / 11.
(2) =: في ظلال القرآن: 6 / 156.
(3) الكناية في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، د احمد فتحي رمضان، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1995 / 134.
(4) =: مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب / 99.
(5) سورة العنكبوت: 41.
(6) المعاني الثانية في الاسلوب القرآني / 428.
(7) =: في ظلال القرآن: 6 / 411.

وتصوغها باشكال هندسية عجيبة؟ ففي العبارة دلالة على القدرة العظيمة، وإذا كانت هذه العبارة قد جاءت باسلوب الخبر فان المعنى الاخر الذي يخرج إليه الخبر يمكن أن يكون السخرية بالمشبه والمشبه به، وأنهم قد اتخذوا ما اتخذوه ظنا منهم أنه ينفعهم، ولفظة (بيتا) بصيغة النكرة، إلاّ تدل على التحقير والتقليل[1] من شأن هذا البيت؟ وكذلك (الاصنام)، ثم أن قوله: (وإن أوهن البيوت لبيت العنكوب) يضم أكثر من مؤكد: (إن)، ثم صيغة (أوهن) التي تدل على النهاية أو الغاية في الضعف، ثم (اللام) في قوله (لبيت)، فالتوكيد يعبر عن مدى الوهن الذي يعيش فيه المشركون، ودلالة (الواو) الاستئنافية تقرير ما بعدها على أنه قاعدة راسخة لدى الناس.

- قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [2]، الخطاب للرسول ﷺ، وتظهر هنا فائدة التضمين وهي الإيجاز، فقد تضمنت هذه الآية ((جميع مكارم الاخلاق لأن في العفو الصفح عمن أساء، والرفق في كل الامور، والمسامحة والاغضاء، وفي قوله (وأمر بالعرف) صلة الارحام ومنع اللسان عن الكذب والغيبة، وغض الطرف عن كل محرم وغير ذلك، وفي (الاعراض عن الجهال) الصبر والحلم وكظم الغيظ، فهذه الألفاظ وأن قلت فقد أنافت معانيها على الغاية ولم تقف على حد ونهاية))[3]. ولا شك أن هذه المعاني الثانية دليل واضح على الصلة الوثيقة بين التضمين وايجاز القصر، وعليه فان شواهد إيجاز القصر التي سبق ذكرها في مبحث الإيجاز تعد من الشواهد الواضحة للتضمين، والرماني أكّد هذه العلاقة بقوله: ((والتضمين كله إيجاز استغني به عن التفصيل))[4].

- قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ

(1) لغة القرآن الكريم / 341.
(2) سورة الاعراف 199.
(3) الطراز: 2 / 127.
(4) ر / 103.

﴿ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥ ﴾ [1]، ولنتدبر هاتين الآيتين مستحضرين صورة هؤلاء، وهم قد عاهدوا الله، وأخذ منهم ميثاقهم ألاّ يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا بعضهم من ديارهم وأقروا على ذلك بانفسهم ولكنهم نقضوا العهد والميثاق وخالفوا أركانه، فنجد أن قوله تعالى: (ثم أنتم هؤلاء) بهذا النظم البليغ ذي الألفاظ القليلة يضم كثيرا من المعاني الثانية إذ يوحي ((بالفرق بين ما كان يجب أن يكونوا عليه وما هم حقيقة عليه، فأي خيبة امل تملأ النفس منهم، أوَلا تدل هذه الجملة القصيرة على سخط شديد، وتعجبٍ لأمورٍ ما كان ينتظر حدوثها، ونتائج كانت المقدمات تمهّد لغيرها))[2]، وهكذا تظهر علاقة التضمين بالجملة الخبرية، فالخبر يخرج أيضاً إلى معانٍ ثانية.

- ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴾ [3] إذ نجد فيه المعاني الثانية توحي بإذلال الوليد بن المغيرة والسخرية منه، ثم توحي بكسر شوكة الضلال وتقبيح الكفر والكافرين، وبيان عاقبة المكذبين للعظة والاعتبار، وفيها تسلية للنبي ﷺ وتأييد له في رسالته،[4] ويخرج الخبر هنا إلى الوعيد، فسيلقى هذا الظالم وأمثاله جزاء أفعالهم، إذ يعرف يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة، فضلا عن خطم أنفه بالسيف يوم بدر[5]، والوسم يقتضي التمكن، وذكر الخرطوم بالوسم فيه تشويه وإهانة، وفي هذا التمكن يظهر عجز صاحب الأنف عن المقاومة[6].

- قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [7]، فقوله: (تلك أمانيهم) يوحي بمعان ثانية للآية حيث التهكم اللاذع بهم، وأن تلك الاماني لم تفارق صدورهم ولن تجد لها سبيلا إلى التحقق في غير أحلامهم[8]، كما تتضمن وعدا للمؤمنين بالجنة، وتحذيرا من الالتفات إلى ما ما يدعي هؤلاء.

---

(1) سورة البقرة: من 84 - 85.
(2) من بلاغة القرآن، د احمد بدوي / 107.
(3) سورة القلم: 16.
(4) =: المعاني الثانية في الاسلوب القرآني / 419.
(5) =: تفسير الجلالين / 760.
(6) =: التحرير والتنوير: 29 / 78.
(7) سورة البقرة: 111.
(8) =: من بلاغة القرآن / 107.

- وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [1] المعنى الأول هو النهي عن قول هذه الكلمة الصغيرة، برا بالوالدين والمعاني الثانية هي تحريم الشتم والقتل والضرب[2]، وفيها وجوب وجوب التادب في معاملة الوالدين، ووجوب برهما بالقول والعمل، ومن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ [3] يفهم تحريم مال اليتيم واحراقه واهلاكه[4] وفيها وجوب حسن معاملة اليتيم ورعايته وامواله، وتتضمن الآية وعيدا لمن خالف أمر الله في اليتامى مما يوحي بمنزلة اليتيم وقدره عند الله ﷻ ذلك القدر الذي توحي به الآيات التي تذكر اليتيم ووجوب حسن معاملته.

- لايجاز الحذف أيضاً صلة وثيقة بالتضمين، ففي حذف المثل في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [5] إيجاز وتضمين لمعان ثانية لايمكن أن تصور بمثال، فهذا الوعد يضم المتاع والاسترواح والظل الدائم والثمر وكل ما تطمئن له النفس وكل ما تتمناه، قال النبي ﷺ ((قال الله ﷻ أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرؤا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ [6]))[7]. فكيف لايحذف المثل وليس هناك شيء يمكن أن يضم تلك المعاني، فضلا عن أن الحذف يذهب الذهن والخيال بعيدا، فنعيم الجنة لا تحده حدود، وهكذا يكون الحذف تعظيما للمعاني الثانية في هذه الآية .

- ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ ﴾ [8]، إذ فيها حصر لانواع النعم لانها أمّا مشتهاة في القلوب واما مستلذة في الاعين[9].

وتتوالى الامثلة والشواهد للتضمين في القرآن الكريم، فلا يمكن حصرها، وصدق الرماني حين قال: (وكل آية في القرآن لاتخلو من تضمين)[1]، وسيطول بنا المقام لو تدبرنا

(1) سورة الاسراء: من 23.
(2) =: المستصفى: 2 / 190.
(3) سورة النساء: 10.
(4) =: المستصفى: 2 / 190.
(5) سورة الرعد: من 35. وسورة محمد: من 15.
(6) سورة السجدة: من 17.
(7) الترغيب والترهيب، للامام زكي الدين المنذري: 4 / 557.
(8) سورة الزخرف: من 71.
(9) =: الكشاف: 3 / 499.

تدبرنا غير ذلك من آيات الكتاب العزيز لنقف عند أسرار ودلالات أخرى، نحو قوله تعالى: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ [2] إذ تجمع الآية كل ما تخرجه الارض قوتا للناس وللحيوان[3]، وتدل بعد ذلك على قدرة الخالق العظيم، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [4] يوحي بالقدرة العظيمة، ويجمع كل ما في الكون من رطب ويابس، ليوحي بعظمة خلقه لهذا الكون وبعلمه المطلق - ﷻ - فيدرك الانسان ضآلة حجمه ويدرك أن الله وحده الخالق ولا إله إلاّ هو.

وهكذا تسير فكرة المعاني الثانية في القرآن الكريم لتنتقل من إشارات عند السابقين إلى باب موحد عند الرماني لتصل بعد ذلك إلى عبدالقاهر الجرجاني الذي حدد مفهوم الفكرة وسار بها شوطا كبيرا مستندا إليها في خدمة نظريته في النظم، ومستندا إلى النظم في خدمة (معنى المعنى). ولرب سائل يسأل لماذا اورد الرماني التضمين بهذا المعنى، ولم يتطرق إلى النوع الآخر وهو المقابل للنيابة؟

إن الرماني أراد بهذا الباب جمع كل ما له علاقة بفكرة المعاني الثانية من الالوان البلاغية الأخرى، لاسيما وأن التضمين بهذا المعنى يعد بحق وجها من وجوه البلاغة المعجزة، ولايبتعد التضمين عند الرماني عن التضمين في الافعال، المقابل للنيابة، إذ إن الفعل يتضمن معنى فعل آخر، فذلك يعني أن المعنى المتضمن يعد معنى ثانيا وهكذا يدخل هذا النوع من التضمين ضمن ما أورده الرماني، ومن ناحية أخرى فان الرماني لم يذكر هذا النوع لأنه قد استوفى القول فيه في كتاب آخر وهو (كتاب معاني الحروف)[5] فقد عرض فيه الحديث عن نيابة الحروف، وتطرق للخلاف بين البصريين والكوفيين في هذه المسألة، وأسند حديثه هناك بالأمثلة والشواهد القرآنية فكان في ذلك كفاية من أن يعيد ما كتبه هناك، في نكته، فضلا عن اشارته إلى كتاب (الجامع لعلم القرآن) بأنه ضمنه تفسيرا للتضمين الوارد في القرآن الكريم، ولولا فقدان هذا الكتاب - لربما - كان له شأن كبير بين كتب اللغة العربية والدراسات القرآنية.

---

(1) ر / 103.
(2) سورة النازعات: 31.
(3) =: التحرير والتنوير: 30 / 87.
(4) سورة الأنعام: من 59.
(5) وهو مطبوع بتحقيق: عبد الفتاح اسماعيل شلبي.